

المبحث السابع

الصدق مع الله

الصدق مع الله

القلوب النقيّة وجدناها في قلوب الأنصار لإخوانهم المهاجرين، فهم ضايقوهم وزوجوهم منهم، والله ﷻ عندما يثني على مجموعة من الناس يمدحهم ويمجدهم، يجب عليك أن تتصفح أحوالهم، وأخلاق الأنصار في القرآن الكريم، نجد أن عندهم سمة أساسية، وهي سمة النقاء، قلوب ليس فيها خدش، قال عنهم الملك تبارك وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

أي: صار الإيثار سمة لهم، وهي دار الهجرة والنبوة وحجرات الحبيب عليه الصلاة والسلام، عليك أن تحب أخاك في الله ﷻ، هذا شيء جميل، ولكن هناك مرتبة أعلى من ذلك، وهي أن تحب الخير لأخيك أكثر من نفسك، تقول: ربما أكون جائعًا، ولكن غيري أكثر جوعًا.

في معركة اليرموك ضربوا أعظم صورة في الإيثار كما ذكر الطبري، معظم الأنصار خرجوا في الموقعة، وأبناء الفاروق عمر ﷻ واستشهد كثير من صحابة النبي ﷺ ستة عشر من الصحابة جرحى وعطشى، وكلما تقدم الماء لأحد يشرب يقول: أخي أحوج مني، وظل الماء يدور عليهم جميعًا، وكان الماء قليلاً حتى عاد الماء إلى الأول، والكل يرفض أن يشرب قبل أخيه، فقال الملك: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

فهو محتاج، ولكنه يرى مع يقينه مع ربه أن غيره أحوج فعاد إلى الأول؛ ليشرب فوجدوه شهيدًا، وهكذا فهم ينتظرون شرابًا أفضل يجري في أنهار الآخرة وليس الدنيا، وكان لسان حالهم: وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا، كما في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١].

أي: يعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر،
وظاهرها من الحرير الغليظ، ويحلّون من الحليّ بأساور من الفضة،
وسقاهم ربهم فوق ذلك النعيم شراباً لا رجس فيه ولا دنس .

هل رأيت أنه مات وهو عطشان؟ ولكنه مُتّع في الآخرة، فلما وجد
هذه العظمة: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠]، ليس أي ملك
الذي ملك ووهب وقسم؟ إنه مالك الملك، لمن الملك اليوم؟ عندما أقدم
غيري على نفسي فأنا مؤمن.

أما عندما أخذ الذي ليس من حقي، وأقول: آخذه، ومن بعدى
الطوفان! فلست مؤمناً؛ لأن تمام، وكمال، ونقاء الإيمان هو قول الحبيب ﷺ:
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »^(١) فنفى عن الناس الذين
عندهم أنانية عالية، ففي قوله تعالى: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ
وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦].

أي: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم أيها المؤمنون في غزوة (تبوك)
آخرون مؤخرون؛ ليقضي الله فيهم ما هو قاض، وهؤلاء هم الذين ندموا
على ما فعلوا، وهم: مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية،
إما يعذبهم الله، وإما يعفو عنهم، والله عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو،
حكيم في كل أقواله وأفعاله.

لقد وصلنا إلى أن الناس الذين ذكرهم الله تعالى على قسمين في سورة التوبة .

المسلم النقي، والمنافق؛ لذلك فسورة التوبة تسمى بالكاشفة والمقشقة
والفاضحة، أي أن الشخص يأتي وعلى يقين بأنه كذاب، ويأتي عند رسول

(١) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه،
رقم الحديث: ١٢.

الله ﷻ فيلتمس الرسول ﷺ له العذر، فكثير من هذا الصنف يعيشون بيننا، ولكن إذا نظرت في قلوبهم تعلم أنه غير صادق، فيقول له الملك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴾ [التوبة: ٧٨]

أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم ما يخفونه في أنفسهم، وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد والمكر، وأن الله علام الغيوب؟ فسيجازيهم على أعمالهم التي أحصاها عليهم.

فقال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩٤].

أي: يعتذروا إليكم أيها المؤمنون هؤلاء المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب عندما تعودون من جهادكم من غزوة (تبوك) قل لهم أيها الرسول: لا تعتذروا، لن نصدقكم فيما تقولوا، قد نبأنا الله من أمركم ما حقق لدينا كذبكم، وسيرى الله عملكم ورسوله، إن كنتم تتوبون من نفاقكم، أو تقيمون عليه، وسيظهر للناس أعمالكم في الدنيا، ثم ترجعون بعد ممااتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها، فيخبركم بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها.

ويعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم، قل: لا تعتذروا، إن الله يعلم عنكم كل شيء، فالأيام تأتي وتثبت أنهم كاذبون في سورة التوبة، وقسم فيها الملك الناس إلى قسمين: قوله تعالى: ﴿ وَعَاخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَاخِرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

أي: وآخرون من أهل (المدينة) ومن حولها، اعترفوا بذنوبهم، وندموا عليها، وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح وهو التوبة والندم والاعتراف

فالذي جلس مع نفسه، وصارح نفسه في سبيله إلى النقاء، الذي يقول:
 أنا راض بحالي، "لا"، لا بد وأن تكون في زيادة، وتعترف أنك مقصر،
 فقال الملك ﴿وَأَخْرُونَ أَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن
 يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فالذي تاب عرفنا أنه تاب، والذين يرجون؛ أي: أنه يريد أن يأخذ أحدًا
 بيديه، ويقول له: نحن في شعبان، وأوشكنا على آخر شعبان، وسنرفع أعمال
 السنة كلها إلى الملك سبحانه وقيوم السماوات والأرض، وإن أعمالك لا
 ترتفع إذا كان هناك عداوة بينك وبين أخيك، اتركوه ودعوه لعله يصفح
 عن أخيه، وعمله يكون نقيًا، يقول: يارب، عمراتي، وحجتي، وصلاتي،
 وزكاتي، فيقال له: لقد لوثتها عندما عادت أخاك.

إلهي ما أكرمك وما أعظم قدرتك، فامنحنا من برك
 وإحسانك ما أنت أهل له، وامنعنا واحمنا من كل سوء،
 ولا تجعل في قلوبنا سواك.

اللهم اعصمنا يا ربنا من شر الفتن، وعافنا من جميع
 البلايا والمحن، وأصلح منا ما ظهر وما بطن، ونق قلوبنا
 من الحقد والحسد، ولا تجعل لظالم سلطانا علينا، ولا تجعل
 للشيطان سلطانا على قلوبنا، ولا تجعل للأهواء والنفس
 الخبيثة سلطانا علينا، اللهم إنا نسألك بنور وجهك الذي
 أشرقت له السماوات والأرض، وبكل حق هو لك أن
 تجعل لنا من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ومن كل
 عسر يسرا، ومن كل بلاء عافية. يا أكرم الأكرمين

اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عُبد، وأنصر من
 ابتغى، وأرأف من مَلَك، وأجود من سئل، وأوسع من

أعطي، أنت الملك لا شريك لك، والفرد لا نذك، كل
شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك ولن تعصي
إلا بعلمك، تطاع فتشكر، وتعصي فتغفر، أقرب شهيد،
وأقرب حفيظ.

اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه، وأولاده وأزواجه،
وذريته وأهل بيته، وأصهاره، وأنصاره، وأشياعه ومحبيه،
وأمته أجمعين يا أرحم الراحمين .
